

جامعة الانبار

مركز الدراسات الإستراتيجية

وظائفية الثنائيات في بنية التكرار (قصيدة يطير الحمام لمحمود درويش أنموذجا)

أ.د.نصرة أحمد جدوع الزبيدي

حزيران/2015

الشاعر: محمود درويش

لا يخفى على قارئ المنزلة الكبيرة التي يتمتع بها محمود درويش (1941-2008)، بوصفه اسما لامعا في سماء الأدب العربي الحديث، واحد ابرز أعمدة القصيدة العربية الحديثة، تعد قصيدة (إلى القارئ من ديوان أوراق الزيتون 1964) أولى قصائده التي كتب، تلاه ب(عاشق من فلسطين 1966) الذي قدمه شاعرا رومانسيا حافظ على هذا التوجه على الرغم من كونه من ابرز شعراء المقاومة، إلى جانب براعته الكبيرة في استخدام الرمز والأسطورة التي نقلت القصيدة العربية إلى مرحلة جديدة رفقة مجموعة من الأسماء الكبيرة على الساحة الشعرية. (1)

بعد مسيرة حافلة بالاعتقال والاختباء والكتابة المحظورة في الصحف عن قضية فلسطين خرج إلى القاهرة ومنها إلى بضع عواصم حتى استقر في بيروت التي تركها اثر الاجتياح الإسرائيلي

للبنان 1982. وظل ينتقل بين عواصم العالم , شغل مناصب أدبية وسياسية مهمة في الفترة الممتدة (1973-1982) منها توليه رئاسة رابطة الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ورئاسة تحرير مجلة الكرمل ثم رئيسا لتحرير مجلة شؤون فلسطينية ومديرا لمركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية, وانتهى به الحال خارج المنظمة بعد استقال منها اثر احتجاجه على اتفاقية أوسلو. (2) كتبت عنه دراسات كثيرة إنسانا وشاعرا وصوت مقاومة خلد نضال الشعب الفلسطيني وأوصل قضيته إلى العالم اجمع .

له ديوان شعري ضخم أعيد طبعه مجلدا وبشكل دواوين مفردة أكثر من مرة.

النص:

تمثل القراءة الأسلوبية للنص تمثلا جماليا للغة والتشكيل قبل أن تكون انتماءا لتيار محدد في الدراسة , وإطارا نظريا يتبع منهجية بعينها, فالأسلوبية بقدر أهميتها لا تعني الأساس في قراءة نص ما طالما أن كل نص مهما كانت درجة الإبداع فيه هو مشروع مهياً للدراسة الأسلوبية, ويصعب أن نتعامل مع نص إبداعي (لاسيما إن كان حديثا) تعاملنا تحده الأطر المنهجية وحدها ونزعم أننا غطينا كل جوانب الإبداع فيه, من هنا فان التركيز على ظاهرة ما في سياق المنهج تختصر الطريق إلى استيعاب جانب من الإبداع من خلال ظاهرة ما تلفت الانتباه, غير أن هناك نصوصا تخرق جدار الإبداع وتتجاوز الخطوط المرسومة التي نضعها مسبقا عند محاولة القراءة الناقدة (إذا جاز التعبير), وهي نصوص لا يقوى على صنعها أي شاعر سوى أولئك الذين ولدوا ليكونوا مبدعين حقا, توأمهم الموهبة والفطرة الفنية, ومنهم محمود درويش, الشاعر والإنسان الذي قيل في إبداعه الكثير مما قدمنا من بعضه موجزا.

والنص الذي بين أيدينا يعد من روائع ما كتب درويش, قصيدة (يطير الحمام) وهو نص يعتمد في بنائه تأسيس المعنى باستخدام آلية التكرار بصفة رئيسة إلى جانب توظيف آليات كثيرة منها الرمز الذي يبرع درويش في توظيفه باستخدام الأدوات اللغوية المتاحة, البسيطة, المألوفة, وتلك قيمة أدب درويش بصفة خاصة, إذ كان لثقافته التي توزعت بين القراءات الشعرية القديمة والحديثة أثرها الكبير في تلك المزوجة الفذة بين الرصانة وانفتاح النص القائم على تشكيل المعنى من مفردات الحياة اليومية, وهذه المقدره ظهرت منذ المرحلة التي كتب فيها ديوان (عصافير بلا أجنحة) الذي عد الخطوة الكبيرة التي خطاها باتجاه الديوان الذي ظهر فيه

نضجه الفني وهو (أوراق الزيتون)، وعده الكثيرون بدايته الفنية الصحيحة، ومجمل قصائد هذه المرحلة عبر فيها عن أحلامه بقصائد غنائية رقيقة قريبة من الناس ونبض الشارع الفلسطيني وهمومه. (3)، وإما المرحلة اللاحقة التي ينتمي إليها هذا النص فهي المرحلة التي لجا فيها إلى الرمز والأسطورة مبتعدا عن المباشرة هربا من الرقابة الإسرائيلية بحكم كونه في فلسطين المحتلة، وظلت لغته وحرصه على الوضوح السمة المميزة لأعماله حتى في هذه المرحلة. (4) مع إن ذلك أيضا كان استجابة لمتطلبات العصر وروح التجديد التي تميزت بها القصيدة العربية في هذه المرحلة .

ولو عدنا إلى النص الذي بين أيدينا لوجدنا إن الشاعر عمد إلى توظيف جميل للغة معتمدا على آليات كثيرة منها التكرار والرمز والأسطورة، وما يعيننا هنا هو التكرار الذي مثل السمة المميزة لهذه القصيدة، والذي تلازم مع الثنائيات التي انتشرت على مساحة النص بشكل واضح .

وهو آلية مهمة من آليات توليد المعنى ، يقع على جميع مستويات الكلام وأشكاله ما يجعله مهما في بناء الصور التي يسعى الشعراء إلى توصيل المعنى من خلالها، وعلى الرغم من قيمته الصوتية بوصفه يحقق التناسق الموسيقي الذي يوحد أجزاء موسيقى النص ، إلا أن له قيمة كبرى تتمثل في قضية توليد المعنى التي اشرنا إليها، حيث انه لا يقوم على مجرد تكرار الكلمة في السياق الشعري وإنما فيما تتركه من اثر انفعالي في نفس المتلقي، ويعكس جانبا من الموقف النفسي والانفعالي وهو أمر لا يمكن فهمه إلا من خلال دراسته داخل النص الشعري الذي يرد فيه والشاعر إذا كرر عبارة ما فانه يعمد إلى تجديد العلاقات وإثراء دلالات وتوسيع رقعة المعنى في النص (5)، وقيمة التكرار تكمن كونه أداة مهمة للنص يستعمل في الشعر كما في الموسيقى وهو من هذا الجانب يرتبط بالإيقاع ، ومن الأدوات التي تبنى في الشعر على التكرار الجناس الاستهلاكي والتجانس الصوتي والأنماط العروضية وغيرها (6)، وهي أمور حضرت في النص هنا عرضا بقدر الحاجة إليها وليس لكونها أدوات رئيسة لبناء المعنى عنده، مثلها مثل آليات التكرار الشائعة في الشعر القديم تحديدا السجع والترصيع وهي مباحث تعنى بنية التكرار النمطي الداخلية التي تختلف عن التكرار المألوف في الشعر الحديث القائم على تكرار الألفاظ والعبارات (7)، ومع ذلك يخرج درويش حتى عن هذا النسق في التكرار حين يستثمره لتأسيس المعنى منطلقا من كونه حالة فنية تمثل جزءا من اللغة الشعرية المتاحة لا غير.

وبذلك يتجاوز التكرار قيمته اللغوية القائمة على تكرار الألفاظ ويحتاج إلى أن يجيء في موضعه من القصيدة وهو على سهولته يمكن أن يضع الشاعر في مزلق تعبيرى على حد قول نازك الملائكة. (8)

وتلازم التكرار مع بعض الآليات يمثل هو الآخر ملمحا بنائيا مهما يخفي وراءه مقاصد فنية يعرفها الشاعر وحده ومنها الثنائيات بشكل عام (الضدية وغير الضدية) وهي من أهم أعمدة القصيدة الحديثة تتوالد فيها الكلمات من الكلمات والصور من الصور فيتم إنتاجها واغناء النص ، واتسعت حدود الثنائيات في مجمل شعره فالواقعي يقابله الخيالي والداخلي الشخصي يوازيه الخارج الشخصي، والحياة مع الموت وهي تجسد أزمته إنسانا مثقفا منفيا وهي جزء من مستوى وعيه الوجودي والتاريخي والجمالي. (9)

وبالتأكيد فان الأدبيات الحديثة قد أسهبت في الحديث عن التكرار مثقلها مثل البلاغيين العرب القدماء لسعة مبحثه وأهميته ويغني عن الحديث عن أهميته في بناء المعنى قول احد الباحثين:

(إن التكرار هو الممثل للبنية العميقة التي تحكم حركة المعنى في مختلف أنواع البديع، ولا يمكن الكشف عن هذه الحقيقة إلا بتتبع المفردات البديعية في شكلها السطحي، ثم ربطها بحركة المعنى)(10)

وبالنسبة لنص (يطير الحمام) يكرر الشاعر لازمة من بيتين هما (يطير الحمام/يحط الحمام) عشر مرات ويبدأ بهما النص منبها إلى حالة رمزية تختزنها العبارات. فمن الدلالات الصوتية هذا التوازي الذي يتكرر في بدء القصيدة ونهايات المقاطع يهيبى لنهاية مقطع وبداية آخر لاحق، ولكي يحافظ الشاعر على هذا التوازي يختم البيت الذي يسبق اللازمة بقافية مشاكله تحقق النسق الموسيقي من جهة والغاية التي يرمي إليها من ورائه من جهة.

ويبدو التكرار بجميع أنواعه (على مستوى الحرف والكلمة والمقطع) ظاهرة واضحة الملامح في شعر درويش عموما وهناك دراسات في مجاميع شعرية أخرى له أظهرت هذه الحقيقة بشكل واضح (11)

ويتداخل التكرار مع الرمز الذي مثل هو الآخر قيمة فنية عالية لا تخلو منها قصيدة قديمة أو حديثة ولو بأدنى درجة، وهو الآخر وسيلة لتوليد المعنى لطالما لجأ إليها الشعراء في بناء الصور الشعرية، وعلى مستوى النص هنا ظهر في مستويين هما:

- 1- المستوى الفني المؤلف الذي يختزن المعنى الداخلي.
- 2- المستوى البنائي الذي يأتي من التكرار نفسه والذي يرمز إلى حالة من حالات المعنى أثر الشاعر إيصالها بهذا الشكل.

وفي قصيدة (يطير الحمام) مثل التكرار على مستوى العبارة ملمحا أسلوبيا وبنائيا لافتا من خلال تكرار بيتين هما(يطير الحمام/يحط الحمام) التي اختزنت تجاوبا معنويا مع كل المقاطع التي اختتمت بها، وهي حاضرة في كل مقطع، ولأنه يشكل لحمة بنائية لا بد من الانتباه إلى غاية الشاعر من وراء توظيفه (الصورة المكررة لا تحمل الدلالة نفسها بل تحمل دلالة جديدة وهذا التكرار يسهم في عملية الإيحاء وتعميق الصور في ذهن القارئ) (12)

ولكي يؤكد الشاعر على قيمة العبارتين المكررتين اختار أن يبدأ بهما النص:

يطير الحمام

يحط الحمام

اعدي لي الأرض كي أستريح

..فاني احبك حد التعب

صباحك فاكهة للأغاني

وهذا المساء ذهب..

واني احبك, أنت بداية روحي, وأنت الختام..(13)

يتضح منذ البداية أن الشاعر يروم استثمار رمزية الحمام كونه يحيل إلى الترحال والغربة في المأثور الشعبي السائد, وهو الذي أجهده الترحال وتغيير الأماكن, وتأتي دلالة (يحط/يطير) لتعكس قلق اللا استقرار الذي يعيش في ظله اللاجئين المطرودون عن أوطانهم ممن اتسعت المسافة في أرواحهم بين البداية والنهاية,, وتتجاوب دلالة (يطير/يحط) مع (كي أستريح) التي تشكل طرفا في ثنائية (التعب /الراحة) هنا, ومعها ثنائية (صباح/مساء) (البداية/الختام) في قوله: (وأنت بداية عائلة الموج حين تشبث بالبر/حين اغترب) و(أنت بداية روحي, وأنت الختام/يطير الحمام/يحط الحمام).

في المقطع اللاحق تبدو ثنائية (النوم/الصحو) موازية لعلاقة (النوم /الراحة) (الصحو/التعب) والتي تتجاوب مع رمزية الحمام المرتبطة بالسلام مع (يطير/يحط) وحيث قوله:

أنا وحببي صوتان في شفة واحدة

أنا لحببي أنا.. وحببي لنجمته الشاردة

وندخل في الحلم.. لكنه يتباطأ كي لا نراه

وحين ينام حببي أصحو لكي احرس الحلم مما يراه

واطرده عنه الليلي التي عبرت قبل أن نلتقي

فتم يا حببي

تم يا حببي

عليك صفائر شعري, عليك السلام

يطير الحمام

يحط الحمام(14)

فقوله (صوتان) و(ينام/أصحو) تثنية وثنائية قابل فيها فعل (النوم) ب(السلام) وهذا التكرار ل(تم) يعطي بعدا صوتيا يشبه تنويمه الأطفال حيث منح المقطع إيقاعا خافتا يلاءم السياق, وتختلف رمزية التكرار في المقطع اللاحق لتأخذ بعدا تاريخيا وطنيا ترمز فيها المخاطبة إلى فلسطين التي ترتبط في إدراك الشاعر بثلاث أماكن على خارطة العروبة التصقت بقضيتها وهو مؤمن بذلك حد(الإدراك) الكافي لهذه الحقيقة وكأن الحمام هنا يطير يحمل مكاتيب الشكوى إلى هذه البقاع مما يجري ويحط فيها :

لأدرك انك بابل, مصر, وشام

يطير الحمام

يحط الحمام(15)

وعلى إيقاع التساؤل يبني الشاعر المقطع اللاحق ب(إلى أين؟) وثنائيات أخرى تضاف إلى (يطير/يحط) وهي بصيغة المثني في(تحملني موجتين,تكسر ضلعين)وتلاحق الصيغ في(تشربنى / توقدني) تصلها بجملي التكرار دلالة المحذور (حرام..حرام)التي ترتبط ببداية المقطع(تأخذني من والدي)كأنما هو استنكار لما سبق وما يلي, في حالة الرحيل والعودة التي توازي (يحط/يطير):

إلى أين تأخذني يا حبيبي من والدي

ومن شجري, من سريري الصغير ومن ضجري

من مراياي من قمري, من خزانة عمري ومن سهري،

من ثيابي ومن خفري؟

تشعل في إذني البراري,تحملني موجتين

إلى أين تأخذني يا حبيبي الى أين؟

وتكسر ضلعين,تشربنى ثم توقدني,ثم

تتركني في طريق الهواء إليك

حرام...حرام

يطير الحمام

يحط الحمام(16)

ويتكرر تلاحق الثنائيات المتنوعة في المقطع اللاحق في توازي (يخلق/يقتل)والمثني في (القدمين/الجننتين)والتضاد في(الصمت /الكلام)ليكون الموت ذريعة للكلام يتحول الحب عندها إلى قصة تحكى وحسب تسكن ما بين الحضور الذي لم يعد مجديا والغياب الذي صار واقعا:

احبك يا جسدا يخلق الذكريات ويقتلها قبل تكتمل

أطوع روحي على هيئة القدمين-على هيئة الجننتين

احك جروحي بأطراف صمتك..والعاصفة

أموت,ليجلس فوق يديك الكلام

يطير الحمام

يحط الحمام(17)

ويبدو أن الشاعر يتعمد ربط التكرار بالثنائية في كل مرة يوظفه فيها,ويتكرر هذا التلازم في(أول/آخر)مع (ليتني لا احبك/يا ليتني لا أحب) حيث التمني بشفاء (الرخام) الموحية بصلاية

القلب التي تستعصي على الشفاء كما استعصت على الوقوع في الحب.. وهذا الاضطراب الذي يظهر جلياً في التكرار المألوف (يطير/يحط) التي تصبح سبباً معكوساً يصبو الشاعر من ورائه إلى النسيان لكي (يشفى الرخام):

أول البحر يجرحني

آخر البحر يجرحني

ليتني لا احبك

يا ليتني لا أحب

ليشفى الرخام

يطير الحمام

يحط الحمام(18)

وفي ترابط (عشر زنايق بيضاء)ب(عشر أنامل تمضي السماء) وترابط(امسك هذا البهاء الرخامي/امسك رائحة للحليب المخبأ)وصيغة المثني(خوختين) وهي رموز مادية جسدية أنثوية و(البر/البحر)(الملح/العسل)(تكسر الحقل/تكسر حتى الشهيق) وترتبط هذه الأفكار المتتالية بلازمة (يطير/يحط) بوساطة الاستفهام الإنكاري (كيف تشردني الأرض) التي توازي (المرأة = البر = المنام = الملجأ):

أراك فأنجو من الموت, جسمك مرفأ

بعشر زنايق بيضاء, عشر أنامل تمضي السماء

إلى ازرق ضاع منها

وامسك هذا البهاء الرخامي, امسك رائحة للحليب المخبأ

في خوختين على مرمر, ثم اعبد من يمنح البر والبحر ملجأ

على ضفة الملح والعسل الأولين, سأشرب خروب ليلك

ثم أنام

على حنطة تكسر الحقل, تكسر حتى الشهيق فيصداً

أراك فأنجو من الموت, جسمك ملجأ

فكيف تشردني الأرض في الأرض

كيف ينام المنام

يطير الحمام

يحط الحمام(19)

وفي المقطع اللاحق تتحكم ثنائية (الأرض/السماء) بحركة المعنى وتعضد (الأرض) فكرة الاستقرار في المقطع السابق ويخلق تواسلا اخر من خلال التأكيد على قدسية الرابطة مع الأرض /المرأة وحيث مفهوم الخصوبة الذي يجمعهما (جسمي أرضك)و(جسمي مقام),وتخترن رمزية اللازمة المكررة هنا علاقتين هما(يطير_سطح سمائي)و(يحط-جسمي أرضك):

حبيبي,سابكي عليك عليك عليك

لأنك سطح سمائي

وجسمي أرضك في الأرض

جسمي مقام

يطير الحمام

يحط الحمام(20)

في المقطع الختامي ينسلخ التكرار عن التثنية,كأنما فرغ الشاعر من قول ما يريد,ليطابق فكرة الخروج الإجباري من الوطن بخروج تاريخي سابق في الأندلس ويكرر التاريخ كتابة ماساته بعد قرون وحيث (الجسر) فيقوله(رأيت على الجسر أندلس الحب)هو الطريق الربط بين مأساتين يعبر عنهما انكسار الخاتم وطييران الحمام(ونام القمر/على خاتم ينكسر/وطار الحمام)لتنكسر ثنائية(يطير /يحط) لأول مرة في النص ويولد بدلا عنها تكرار مقطعي تتجاوب فيه مواقف طرفي معادلة الحب التي انتهت(خاتم ينكسر) يصاغ بضمائر الغياب (قال/قالت) يستبدله بتكرار مقطعي متشابه المغردات إلا من ضمائر الكلام ,وتغلق حلقة التكرار ب(حط على الجسر والعاشقين الظلام)وتتحول العبارة إلى تكرار لا يحمل في طياته سوى غياب لا عودة منه(يطير الحمام/يطير الحمام) ليغلق طريق العودة إلى الوطن الذي اخرج منه مشردا في أنحاء الأرض :

رأيت على الجسر أندلس الحب والحاسة السادسة

على وردة يابسة

أعاد لها قلبها

وقال:يكلفني الحب ما لا أحب

يكلفني حبها

ونام القمر

على خاتم ينكسر

وطار الحمام

رأيت على الجسر أندلس الحب والحاسة السادسة

على دمعة يابسة

أعدت له قلبه

وقالت: يكلفني الحب ما لا أحب

يكلفني حبه

ونام القمر على خاتم ينكسر

وطار الحمام

وحط على الجسر والعاشقين الظلام

يطير الحمام

يطير الحمام(21)

إن هذا الترابط بين الثنائيات والتكرار يلفت الانتباه إلى طريقة الشاعر في إنتاج المعنى والتي يظهر جليا أنها لا تتبع قواعد الأسلوب بشكل سطحي وإنما تسعى لخلق نمط خاص بالشاعر، وربما أن الدراسات الكثيرة التي تناولت التكرار في أشعار درويش تثبت بما لا يقبل الشك هذه الحقيقة، فلمحمود درويش طريقته الشعرية الفريدة التي تميزه عن غيره من شعراء جيله، واختياره المقصود للحمام في هذه القصيدة خرج عن التوظيف الرمزي المألوف لهذا الطائر، ولو أراد لاكتفى بأبعاده الأسطورية والرمزية وهي حاضرة في التراث وفي الشعر المعاصر، إلا أنه اختار تحريكه ضمن تشكيل خاص أفضى إلى هذا اللون الكبير في حضور الرمز، مثلما ضبط الإيقاع بطريقة تتداخل مع دقائق المعنى، فكانت النتيجة نصا عميقا في غاية الروعة والإبداع.

- 1- ثلاثة مداخل لقراءة محمود درويش/55
- 2- محمود درويش-ويكيبيديا, أشعار محمود درويش/10.
- 3- ينظر ثلاثة مداخل لقراءة محمود درويش/ 58
- 4- محمود درويش-دراسة تحليلية في حياته وشعره-2011/6/15-مؤسسة محمود درويش للإبداع.
- 5- الصورة الشعرية عند أبي القاسم الشابي/38
- 6- التكرار في الشعر الجاهلي/31
- 7- البلاغة والأسلوبية/293
- 8- قضايا الشعر المعاصر/278.
- 9- الثنائيات-دراسة في شعر محمود درويش/999
- 10- بناء الأسلوب في شعر الحداثة/ 109
- 11- ينظر أساليب التكرار في ديوان سرحان يشرب القهوة في الكافيتريا/122, التكرار في شعر محمود درويش/200
- 12- التكرار في شعر محمود درويش /85.
- 13- أشعار محمود درويش/394
- 14- م.ن/350
- 15- م.ن/351
- 16- م.ن/352
- 17- م.ن/353
- 18- م.ن/354
- 19- م.ن/355
- 20- م.ن/356
- 21- م.ن/357

المصادر

- 1- أساليب التكرار في ديوان سرحان يشرب القهوة في الكافيتريا لمحمود درويش (مقاربة أسلوبية)-عبد القادر علي زريقي-مذكرة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب واللغات – جامعة الحاج لخضر-باتنة-الجزائر-2012.
- 2- أشعار محمود درويش(الأعمال الكاملة)-دراسة وإعداد إبراهيم-دار فاروس للنشر-القاهرة-2012.

- 3- البلاغة والأسلوبية-د.محمد عبد المطلب-مكتبة لبنان-ط1 – بيروت-1994.
- 4- بناء الأسلوب في شعر الحداثة- محمد عبد المطلب- دار المعارف- ط1- مصر-1995.
- 5- التكرار في الشعر الجاهلي-د.موسى ربابعة-مؤتمر النقد الأدبي الثاني جامعة اليرموك- اربد-1988.
- 6- التكرار في شعر محمود درويش- فهد ناصر عاشور، المؤسسة العربية للدراسات والنشر-ط1-الأردن-2004.
- 7- ثلاثة مداخل لقراءة محمود درويش- فيصل دراج-مجلة الكرمل /العدد 90ابريل/2009.
- 8- الثنائيات،دراسة في شعر محمود درويش-نزار قبيلات وعلي الشروش-دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية-الجامعة الأردنية--مجلد38-العدد3-2011.
- 9- لصورة الشعرية عند أبي القاسم الشابي-مدحت سعيد الجيار-الدار العربية للكتاب -ليبيا- 1984.
- 10- قضايا الشعر المعاصر-نازك الملائكة- دار العلم للملايين-ط7- بيروت- 1983
- 11- محمود درويش-دراسة تحليلية في حياته وشعره-15-6-2011-مؤسسة محمود درويش للإبداع.
- 12- محمود درويش-ويكيبيديا.

